العقيدة - العقيدة الطحاوية - الدرس (٠٢-٢٠) : توحيد الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بما علَّمتنا، وزدْنا عِلما، وأرنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه وأرنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

موضوع التوحيد أهمّ موضوع على الإطلاق في العقيدة :

أيها الأخوة المؤمنون، لا شكَّ أنَّ أهمّ موضوع على الإطلاق في العقيدة هو موضوع التوحيد، إلا أنَّهُ مما يَلْفتُ النَّظر أنَّ كلّ دَعْوةٍ إلى الله عز وجل ربما رَكَّزَتْ على بعض القضايا أكثر من تركْيزها على بعض القضايا الأخرى، وكلكم يعْلم أنَّ قضِيَّة التوحيد في مسْجدنا والحمد لله تُسَلَّط عليها الأضواء بِشَكْلٍ مُسْتَمِرّ، ففي دروس التفْسير، وفي دروس الحديث الشَّريف، وفي دروس السيرة، كما رأيْتم، وتعلمون أنّ التَّركيز على التوحيد دائمٌ، فمع أنَّ هذا الموضوع من أخطر موضوعات الكتاب، فمهما فَصّلْتُ فيه، فلن أضيفَ على ثقافتكم في هذا الموضوع شيئاً جديداً، لكنَّهُ من الثابت أنَّ العقيدة الطحاويَّة تُفَرِّق بين مُصْطَلَحَيْن؛ مُصْطلح توحيد الربوبيَّة، ومصْطلح توحيد الألوهِيَّة، فتَوْحيد الربوبيَّة بِشَكْلٍ مُختصر يُفيد أنَّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، وهذا التوحيد يتوافق مع الفطْرة، وليس موْضِع نِزاعٍ عند عامَّة الناس، وذلك لأنَّه لا أحد ادَّعى أنَّهُ هو الذي خلق الكَوْن، والإنسان بِنَظْرةٍ بسيطة في هذا الكون يشْعر بأنَّ له خالقًا، لكنْ أين الخلاف وأين المُشْكلة ؟! الخِلاف ليس في توحيد الربوبيَّة، ولكن في توْحيد الألوهيَّة، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)

[سورة الزخرف : ٨٧]

حتى عُباد الأوْثان يدَّعون أنَّهم يعْبدون الأوْثان لِيَتَقَرَّبوا بها إلى الله زُلْفى، فهذا الكلام تَحَدَّثنا عنه في الدرْس الماضي، وعن طريق دليل التمانع أُثْبتَ لكم أنَّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، ووعَدْتكم في هذا الدَّرْس إلى أن أنتقل إلى توحيد الألوهِيَّة .

الإنسان بدَافِع فِطْرته يُقبل على ما ينْفعه ويبتعد عما يُؤْذيه :

أوَّلاً نقرأ، ونشْرح، فلا ريْبَ أنَّ الإنسان قد يُحَصِّل اعْتِقادات؛ منها ما هو صحيح، ومنها ما هو خطأ وباطل، فَبِذِهْن كُلّ إنسان تَصَوّرات، فمنها ما هو مُطابق للواقع، إذاً فهي حقّ، ومنها غير

مُطابقة للواقع، فهي باطلة، فالحقّ هو الشيء الثابت، والباطل هو الشيء الزائل، فكُلّ شيء ليس له أساس واقِعي فهو باطل، وكلّ شيء مُسْتَنِد للواقع فهو حقّ، لكِنَّه لا بدّ في تَرْجيح تلك المقولات والتَّصوّرات من مِقياس، ونحن دائِماً نقول : أنت أمام آلاف المقولات في الإسلام، فأنت كَطالب عِلْم وكَدَاعِيَة إلى الله أهم شيء في عِلْمك أن تملك المِقْياس! وقد بَيَّنْتُ لكم سابِقاً أنَّك لو وُضِعْتَ أمام عشرات القطع من الأقمِشَة، ولِكُل قطعة قماش قياس أُلصِق عليها، مَكْتوب قياس كذا وكذا، فأنت كيف تَتَحَقَّق من هذه المِقياسات؟ لا بدّ لك من أداة قياس، كذلك لو وقفتَ أمام عشرات المقولات بل مئاتها كيف تتأكّد من صِحَّتها؟ لابدّ من مُرَجِّح.

التَّفْهيم لا التَّلْقين والإقناع لا القمْع من مبادئ الدعوة إلى الله :

أذْكر أنَّني ذَكَرْتُ لكم قبل أيام فِكْرة مُهمّة جداً، وهي أنَّ الإنسان بحُكم فطْرته يُحِبّ ذاته، ووُجوده، واسْتِمرار وُجوده، وكمال وُجوده، وسلامة وُجوده، فإذا تَيَقَّن المرءُ أنَّ الإيمان بالله تعالى ينْفعه، وأنَّ الكُفْر بالله يضرّه، آمن بِدَافِعٍ من فطْرته، فهي التي تَدْعوه إلى الإيمان بالله، إلا أنّه بَقِيَ على الداعِيَة أن يُقْنِعَ الإنسان أنَّ الإيمان ينْفعه في الدنيا والآخرة، وأنَّ الإعراض عن الله تعالى يضرّه في الدنيا والآخرة، فلذلك لو أنَّ الإنسان خُيِّر بين أنْ يُصَدِّق وينْتفِع، وبين أن يُكَذِّب ويتَضَرَّر، مال بِفِطْرته إلى التَّصْديق كي ينتفع، فالمهم ليس حمْل النفْس على طاعة الله، إنما في إقْناعِها بِمَدى الفائِدَة من طاعة الله، فإذا اقْتَنَعت أصْبح التَّطْبيق سَهْلاً، وهذا الكلام يقود إلى فِكْرة، فقد سُئِلْتُ مَرَّة ما الذي يُقَوِّي الإرادة؟ وهو سُؤال وَجيهٌ جداً، فهناك من يعْصي الله تعالى، وهو لا يعْرِفُه، فالمُقدِّمات متناسبة مع النتائِج؛ لا يعْرفه ويعْصيه، وهناك من يعْرِفُه، ويُطيعُه، فهاتان الحالتان طبيعِيَّتان، لأنَّهما متناسبتان بين المقدِّمات والنتائِج، أما الذي يُقْلق فهو من يعْرف أنَّ هذا حرام، وهذا حلال، وأنَّ خالق الكون أمر بهذا ونهى عن هذا، ثم هو لا يُطيع، فهذه الحالة تُفَسَّر بِضَعْف الإرادة! لذلك بِبَساطة بالغة: بالعِلْم تُقَوِّي الإرادة، ومَثَلاً الذي يُغْرم بِتَناول الطعام المالح، فهذا له عادة أصيلة في هذه الأسرة، مما يؤدي إلى ارتفاع ضَغْطه، فهل المُشْكلة أن نقْمعه عن تناول المِلْح أم أن نُقْنِعَهُ ؟ القمْع لا يُجْدي، لأنَّهُ عادة مُتَأصِّلة في تناول الطعام المالح، لكن الطبيب الحاذق الماهر الذي يُوَضِّح بالأدِلّة الدقيقة كيف أنَّ المِلح يحْبِسُ السوائل، وكيف أن السوائل تمتلئ بها الأوْعِيَة، وكيف أنَّ القلب يجْهَد، فإذا أيْقن المريض بالضغْط أنَّ المِلْح يُؤْذيه،

فَتَرْكُ المِلْح حينئذٍ سَهْل جداً، لذا فالإنسان بدافِع فِطْرته يُقْبِلُ على ما ينْفعه، وبدافِع فِطْرته يبْتعِدُ عمَّا يضرّه، بَقِيَت مُهِمَّةُ الداعِيَة في دَعْوَتِه أن يُقْنِع لا أن يقْمع، فهناك من يتمنى أن يدْعوَ إلى الله، يأتي بصَديقه إلى الدرْس، فهذا الجرّ لا ينفع، فهو يَحْضُر معك مرَّةً واحدة مُجاملةً لك، فالأوْلى لا أن تجُرَّه، بل أن تُقْنِعَهُ! لذلك من مبادئ الدَّعوة إلى الله تعالى التَّفْهيم لا التَّلْقين، والإقناع لا القَمْع، فالفِكْرة الأولى اليوم أنّ الإنسان بدَافِع فِطْرته يُقبل على ما ينْفعه، ويبتعد عما يُؤْذيه، فإذا علِم أنَّ الإيمان ينْفعه وأن الكفْر يضرّه أقبل على الإيمان وابْتَعَد عن الكفْر.

الإنسان ليس مفْطوراً على معرفة ما ينفعه ولكنه مَفْطور على حبِّ ما ينْفعه :

هناك فِكْرة ثانِيَة، وهي أنَّ الإنسان مَفْطور كما قلتُ قبل قليل على جلْب المنافع، ودَفْع المضار بِحِسِّه، إلا أنَّه لا بدّ من شيءٍ خارجي يُبَيِّن له، فلو كان مَفْطوراً على حُبِّ ما ينْفعه فهل هو مَفْطور على معْرفَة ما ينْفعه ؟! مِن هنا كان التَّعْليم لا بدّ منه، وإلا أصْبح التَّعْليم لا فائِدَة منه إطْلاقاً، والإنسان أوْدَعَ الله فيه قدْرة التَّعَلّم، فلو أنَّك قرأت الكتاب الفلاني على الطاولة، فهذه الطاولة بعد أن قرأت الكتاب كلَّه، وسألْتها؛ هل تفْهم ما فَعَلْتَ وما قرأت؟!! فحينما خلق الله الخشب لم يُوْدِع فيه القوَّة الإدراكيَّة، فالقَضِيَّة أنَّه ما دام الله تعالى أوْدَع في الإنسان هذه القوَّة سأله أن يتعلَّم، لذا الجمادات لا تُدْرك، والمادَّة ليْسَت عاقِلَة، فالله تعالى ما أوْدع في الإنسان هذه القدْرة إلا وأراد منه أن يتعلَّم، فالله تعالى كما يقول بعض العلماء: ما أمرنا بالدعاء إلا لِيَسْتجيب لنا، وما أمَرَنا بالاسْتغفار إلا لِيَغْفِرَ لنا، وما أمرنا بالتوبة إلا لِيَتوب علينا، وقِياساً على هذه الحقائق فما أوْدع فينا قوَّة التعلّم إلا من أجل أن نتعلَّم، لذا فالإنسان ليس مفْطوراً على معرفة ما ينفعه، ولكنه مَفْطور على حبِّ ما ينْفعه، يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم، فإنَّ النفوس قد جُبِلت على حُبّ من أحْسن إليها، وبُغض من أساء إليها .

توحيد الألوهية و توحيد الربوبية :

كما تعلمون في الدرْس السابق أنَّه ليس هناك شكّ في أنَّ الإنسان مُسَلَّمٌ بالطَّبْع بأنَّ له خالقاً واحِداً، إلا أنَّ التعامل اليوم أنَّ الله عز وجل أوْدع في الأشْياء قوَّة، ففي النار قوّة الإحراق فيما يبْدو، إلا أنَّ الحقيقة التي تعلمونها من دروس جَوْهرة التَّوحيد أنَّ الأشياء تفْعل الفِعْل بإرادة الله لا بذاتِها، فإبداع الله للنار قوَّةَ الإحراق منوط بمَشيئة الله تعالى، لذلك قال علماء التوحيد اخْتِصاراً عندها لا بها؛ عند مشيئة الله، لا بذات الأشياء التي تفعَلُ فِعْلها، لذا توحيد الألوهيَّة غير توحيد الربوبيَّة، فالله تعالى خلق الكون، وانتهى الخَلق إلا أنَّه بقِيَ التَسْيير والحركة على وَجْه الأرض، فالإنسان أمامه قِوى ومُغْرِيات، والله تعالى خلق القويّ والضعيف، والفقير والغنيّ، والغبيَّ والذكيّ، فهذه الحُظوظ

المُتفاوِتَة، وهذه القوى المتفاوتة، كيف يتعامل معها الإنسان؟ فإذا ظَنَّ أنَّها فاعِلَةٌ بذاتها فقد وقع في الشِّرْك، وتوحيد الربوبيَّة يعْني أنّ لهذا الكون خالقاً واحِداً، لكنّ توحيد الألوهِيَّة يعْني أنَّ الله تعالى الذي خلق، وهو ربّ العالمين، وهو الذي يتصرَّف، ولو أنَّكم قرأتم آيات التوحيد، وأنا أذْكرها كثيراً، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: ١٢٣]

يقول علماء التوحيد: لا إله إلا الله، تعني لا مَعبود بحَقٍّ إلا الله ؛ فمن هو الذي ينبغي أن تعبده؟ أوَّلاً: هو الخالق، وثانياً: هو الربّ، وثالثاً: هو المُمِدّ، ورابعاً: الذي يُحْيي ويُميتُ ويرْزق ويرفع ويخْفض ويعطي ويمنع، فهذا الذي بيَدِهِ كُلّ شيء هو الذي ينبغي أن تعْبده.

الله عز وجل ما أمر الإنسان أن يعبده إلا بعد أن طمأنه :

توحيد الألوهِيَّة يختلف عن توحيد الربوبيَّة، ولو ذَهَبْت إلى بلاد الغرْب لرأيْتَ أنَّ هناك عقيدَةً هي سبب هلاكِهم؛ هم يعْتَقِدون أنَّ الله جلّ جلاله خلاقٌ وليس فعالٌ، كأنَّ المعنى خلق الله الخلْق وقال: انْتهتْ مُهِمَّتي، وبَقِي أنّ لكم أنْ تفعلوا ما تشاؤون، وهو ما يُعَبَّر بألوهِيَّة الإنسان، لكنَّنا كَمُؤمنين عقيدتنا الإسلامِيَّة النابعة من كتاب الله عز وجل وسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم تُؤكِّد أنّ الله خلاّق، وفعال، وأقرب آيةٍ لهذه الفكرة قوله تعالى :

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأعراف: ٥٤]

وقوله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود: ١٢٣]

ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمْأنك قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف: ٨٤]

وقال تعالى :

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

[سورة الكهف: ٢٦]

وقال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة الأنفال: ١٧]

هذه الآيات ومثيلاتها تؤكّد أنَّ الله تعالى إلهٌ واحِد، وهو ربّ واحد، فهو المُسَيِّر.

الشرك نوعان؛ شرك خفي و شرك جلي :

قال تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

[سورة النمل: ٥٩]

دَقّقوا، أمَّن خلق؟ فهو الذي خلقَ لا غيرُه، ثمّ أإلهٌ مع الله؟ لا إله معه، فالله هو الخالق، والذي يفْعل ما يريد، ويرزق، ويمنع، ويُحْيي، ويُميت، ويعزّ، ويذِلّ، وهو ربّ العالمين، ولا تنْسَوا أنَّ هذا الاسْتفهام هو اسْتفهام إنكاري، قال تعالى:

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)

[سورة الأنعام: ١٩]

وكما أقول دائماً في الدروس العامّة وفي دروس التَّفْسير : هناك شِرْك جليّ، وهناك شِرْك خفيّ، فالأوَّل كأن تقول : أعبد بوذا، واللات، والعزَّى، إلا أنَّ الشِّرْك الخفيّ أنْ تتَوَهَّم أنَّ جِهَةً ما أرْضِيَةً، أو غير أرْضِيَة، لها التَّصَرّف في الكون، لذلك فعَنْ أَبِي عَلِيٍّ رَجُلٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ قَالَ خَطَبَنَا أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَزْنٍ وَقَيْسُ بْنُ الْمُضَارِبِ فَقَالَا: وَاللَّهِ لَتَخْرُجَنَّ مِمَّا قُلْتَ أَوْ لَنَأْتِيَنَّ عُمَرَ مَأْذُونٌ لَنَا أَوْ غَيْرُ مَأْذُونٍ، قَالَ: بَلْ أَخْرُجُ مِمَّا قُلْتُ، خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ))

[أحمد عَنْ أَبِي عَلِيٍّ]

وهذا هو الذي قاله الله عز وجل:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف: ١٠٦]

ونعوذ بالله من الشِّرْك الخفيّ، ومن الشِّرْك الجَلِيّ.

لِلكون خالقٌ واحد و مُسَيِّر واحِدٌ هو الله :

الآن، مَن الإله الذي ينْبغي أن يُعْبد؟ دَقّقوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: ٢١]

لِهذا الكون خالقٌ واحد هو الله، ولِهذا الكون مُسَيِّر واحِدٌ هو الله، فالله هو الخالق، وهو المُسَيِّر، هو الخالق الربّ، وهو المُسَيِّر الحكيم.

من رحْمَةِ الله بالإنسان أنَّه جعل الحقائِق الأساسيّة في الدِّين عليها أكثر من دليل :

النقطة التي بعدها في هذا الموضوع، هو أنَّ الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بِخَلْقِه جَعَل للحقائِق التي يحْتاجُها عِباده أدِلَّة كثيرة؛ قد تحْتاج إلى حقيقة لكِنَّها نادرة، وعليها دليل نادِر، إلا أنّك لو احْتَجْتَ إلى حقيقة أساسيّة في سعادتك، فالحقائِق الأساسِيَّة أكْثر الله تعالى عليها الأدِلَّة، لذلك ما أرْوَعَ قَوْل الشاعر:

وفي كُلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنَّه واحِدُ

***

سألني اليوم أخٌ كريم، كيف أتَعَرَّفُ إلى الله؟ فقلتُ: الكون أوْسَعُ باب تدْخل منه إلى الله، وهو أقْصر طريقٍ تسْلكه إلى الله، فالكون آياته الكَوْنِيَّة، والقرآن آياته القرآنيَّة، والأفعال آياته التَّكْوِينِيَّة، فَمِن هذه الثلاث تَصِل إلى الله عز وجل، وهذا من رحْمَةِ الله تعالى أنَّ الحقائِق الأساسيّة في الدِّين عليها أكثر من دليل.

الآية التالية آية أساسِيَّة في موضوع توحيد الألوهِيَّة :

نقفُ عند آيةٍ دقيقةٍ في هذا الموضوع، لماذا اخْتَرْتُ هذا الكتاب في الأساس؟ لِعلَّة كبيرة جداً؛ وهي أنَّ عِلْم العقيدة ينبغي أن يُؤْخذ من الكتاب والسنَّة، وهذا هو الوَضْعُ الطبيعي والوَضْعُ الصحِّي، عقيدتنا نأخذها من كتاب ربِّنا، لذلك لا تستغْربوا، ولا تعْجبوا أن يكون مِحْور الدَّرْس كُلّه آيات التوحيد، يقول الله عز وجل:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

هذه الآية أساسِيَّة في موضوع توحيد الألوهِيَّة، لذلك أقرأ لكم شَرْحها وأُعَلِّق عليه، قال المؤلف: هذا برهان باهِر على توحيد الألوهِيَّة، الإله الحق لا بدّ من أن يكون خالقاً فعالاً، يُوصِلَ عابِدَه للنَّفْع، فهو الذي خلق وهو الذي يتصرَّف، يُعْطيك الخير ويصْرف عنك الشرّ، وهو الذي ينبغي أن تعْبده، وعَمَلِياً فالناس يعْبدون الذي يتَوَهَّمون أنه ينفعهم، ويصْرف عنهم الشرّ، فإذا اعْتَقدوا أنَّ الله وحده هو الذي ينفع ويضرّ كانوا مِمَّن وحدُّوه، وإن اعْتقدوا أنَّ جِهَةً أخرى هي التي تنفعهم فقد أشْركوا . الآن أقول افْتِراضاً: لو كان مع الله تعالى إلهٌ آخر يُشْرِكُهُ في مُلْكِه لكان له خلْقٌ وفعْل وأمْر، فمِن أين جئْتُ بهذا الكلام؟ من قوله تعالى:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

وحينها لا يرضى تِلك الشَّرِكة، وإن قدَرَ على قهْر ذلك الشَّريك، وتفرَّد بالمُلْك لَفَعَل! حينما كانت إسبانيا تابِعَة للمُسْلمين كانت مملكة واحدة، فلما أصْبَحَت ممالك، فلو أنَّ واحداً من هؤلاء المُلوك قَدَر على أن يُسَيْطر على الجميع لَفَعَل، ولما لم يقْدر فإنه يسْتَقِلّ بِمُلْكِه، حتى صارت الأندلس ملوكاً و طوائف، يقول الإمام الطحاوي: ما الذي يحْصل لو أنَّ في الكون آلِهَةً أخرى؟ قال: إما أن يذْهب كُلّ إلهٍ بما خلق، وإما أن يعْلوَ بعضهم على بعْض كما قال الله عز وجل، وإما أنْ يُقْهَروا جميعاً، والله عز وجل هو الذي قَهَرَهم، فهم كُلهم مُزَيَّفون! فهذا دليل آخر من كتاب الله على أنَّ لهذا الكون إلهاً واحداً، ففي الدرْس الماضي عرفنا أنَّ لهذا الكون خالقاً واحداً، أما في هذا الدرْس فعرفنا أنّ للكون خالقاً واحِداً، وإلهاً واحِداً، هو الله تعالى، فهو الخالق الإله، قال : إما أن يذْهب كُلّ إلهٍ بما خلق، وإما أن يعْلوَ بعضهم على بعْض، وإما أن يكونوا تحت قَهْر إلهٍ واحِد، يتصرَّف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرَّفون فيه، بل يكونون مَرْبوبين، وعبيداً مَقْهورين من كلّ وجْه .

انتظام العالم وإحكام أمْره من الأدلةِ القاطعة أنَّ إلهه واحد وله ربٌّ واحد :

ما الذي يُؤَكّد أنّ لهذا الكون إلهاً واحِداً؟ أما قال الله عز وجل :

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

لو كان للكون آلهة مُتَعَدِّدَة لكان لكلّ إله نِظامه، ودينه، وأنبياؤه، ولرأيْتَ التَعَدُّد، أو لرأيْت الصِّراع، فإن لم ترَ هذين، بقِيَ أن نقول: إنَّ لِهذا الكون إلهاً واحِداً، لذلك يقول صاحب العقيدة الطحاويَّة: وانتِظام أمر العالم كلّه، وإحْكام أمْره، وتدْبير أمْره، من أدَلِّ الأدلة على أنَّ مُدَبِّرَهُ واحد، فأنت أحْياناً تدْخل إلى مُسْتشْفى، أو إلى مدْرسة، أو مُؤسَّسة، تشْعر بالفِطْرة أنّ مُسَيِّراً واحِدا هو المُخَطِّط،وأمْره نافذ في كل هذه المؤسَّسة؛ دوام منتظم، والأعمال والمحاسبات دقيقة، وكلٌّ يجرب بانتظام، فالمؤسَّسة تدلُّك على أنَّ مديراً واحِداً بيَدِهِ كُلّ شيء، لكن لو تنازعوا السلْطة لكانت هناك حرب أهْلِيَّة، قَتْلٌ وضحايا، وعدم اسْتِقرار، لذلك انتظام العالم، وإحكام أمْره من الأدلةِ القاطعة أنَّ إلهه واحد، وله ربٌّ واحد، ولا إله للخلْق غيره، ولا إله لهم سِواه.

كما أنّ دليل التمانع اسْتخدمْناه في توحيد الربوبيَّة، فلنسْتخدم الآن كذلك دليل التمانع أيْضاً في توحيد الألوهِيَّة، وهذه الآية اِعْتَبِرْها أساسِيَّة:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

قال أحد العارفين بالله تعالى: والله لو تشابهت ورقتا زيْتون لما سُمِّيتَ الواسِع. الخَلْق مُتَنَوِّع، إلا أنَّ هناك وَحْدة، الذي يلْفت نظري أنّ معمل أدْوية في بريطانيا مثلاً، ويتناول هذه الحبوب إنسان بأسْتراليا، أو في أيِّ مكان من العالم فَيَسْكُنُ ألَمُه، على أيّ شيء اعْتَمَدنا؟ أليس هناك بُنْية واحدة للبشر؟ لولا أنَّ هؤلاء الناس جميعاً مُصَمَّمون تَصْميماً واحِداً في أعْصابهم لما نفع الدواء، فالطبيب مثلاً يقْرأ علمه على جثَّة واحدة للإنسان، وكل طبيب في العالم يدْرس الأبعاد نفْسها، التصاميم وبُنْية

الأبعاد نفسها، هذا دليل على عدم التَّعدد في الخَلْق، بل هناك وَحْدة وانْتِظام، والعالم كلّه تجْري به سنن واحدة، فانتظام العالم، وإحكامِهِ دليلٌ على أنَّ له إلهاً واحداً .

العالم يفْسد بتَعدُّد الآلهة ولا يصْلح إلا أن يكون له إله واحد هو الذي خلق هذا الكون :

آيةٌ ثانِيَة لا تقلّ عن الأولى أهَمِيَّةً، وهي قوله تعالى:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

و(إلا) هنا خرجَتْ عن معناها الذي تعرفونه، فهي ليْسَت أداة اسْتِثناء، لو كانت للاسْتِثناء لفَسَدَ المعْنى؛ ولكان المراد : لو كان فيهما آلهة ليس الله معهم، أما المعنى هنا في هذه الآية: لو كان فيهما آلهة غير الله لفَسَدَتا، فالفساد شيء، وعدم الخلْق شيء آخر، فتوحيد الربوبيَّة يعني استحالة وجود خالِقَين لهذا الكون، لكن توحيد الألوهِيَّة: أن لو كان لهذا العالم خالق واحِدٌ، وله آلهة أخرى لفسدتا! فالفساد بعد الوُجود، وهذا الوُجود لا يُعْقل إلا أنْ يكون له إلهٌ واحِد، لكن بعد الوُجود لو أنَّ له آلهة مُتَعَدِّدة لَفَسَد الكوْن، لم يقل لن يوجَدا، إنَّما قال: لَفَسَدتا، لو كان المقصود توحيد الربوبيَّة لقال لم يوجَدا، لكنه قال: لفسدتا، ودرسْنا بالتمانع إرادَتَيْن مُتناقِضَتَيْن، إذاً لا يجوز أن يكون في الكون آلهةٌ مُتَعَدِّدة، بل لا يكون الإله إلا واحداً، وينبغي أن نعتَقِد أنَّ الآية الثانيَة تُكَمِّل الأولى في هذا المعنى، فهناك فكرتان: يجب أن يكون هناك إلهٌ واحد، ويجب أن يكون هذا الإله الواحد هو الذي خلق، وهو معنى قول الله عز وجل:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

[سورة المؤمنون: ٩١]

ويُسْتفاد من هذه الآية معلومتان دقيقتان: العالم يفْسد بتَعَدُّد الآلهة، ولا يصْلح إلا أن يكون له إله واحد، هو الذي خلق هذا الكون.

توحيد الألوهيَّة مُتَضَمِّن توحيد الربوبيَّة و ليس العكس :

أمّا الفكرة التالية، أنّ توحيد الألوهيَّة مُتَضَمِّن توحيد الربوبيَّة، وليس العكْس، بمَعنى أنَّ الإنسان لو اعْتَقَد أنَّ لهذا الكون إلهاً واحداً، فمِن لوازم الألوهِيَّة أنَّه هو الذي خلق، وله خالق واحدٌ هو الله عز وجل، فإذا اعْتَقَدْتَ بتَوْحيد الألوهِيَّة اِعْتَقَدْتَ بتَوحيد الربوبيَّة ضِمْناً، فلو أنَّك اعْتَقَدْتَ أنَّ لِهذا الكون خالِقاً واحداً ربَّما اعْتقدْت أنَّ زَيْداً أو عُبَيْداً بيَدهما الأمْر، لذلك كما قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

[سورة يونس: ٢٤]

ظنّ أهلها أنَّهم قادِرون عليها فأشْركوا، سَمِعْتُ أنَّ الاتِّحاد السوفيتي كان يمْلِك من القنابل الذريَّة ما يُدَمِّر العالم خمْس مرَّات، ومع ذلك تداعى كَخيوط العَنْكبوت! فهذا من آيات الله الدالة على عظْمَتِه.

من اتجه لغير الله فقد أشرك و الشرك من أكبر أنواع الظلم للنَّفْس :

ننتقل إلى موضوع آخر ولا زلنا في موضوع الألوهِيَّة، وهو أنَّ توحيد الألوهِيَّة هو توحيد الحقيقة، وتوحيد الحقيقة يوجب عليك أن تعتقِد أنَّ لِهذا الكون إلهاً واحِداً، وينبغي أن تتَّجِهَ إليه وحْده، ويعني أن تعْتقِد أنَّ لهذا الكون إلهاً واحِداً ومُسَيِّراً واحِداً، فَيَجِبُ أن تتَّجِهَ إليه وحْده، وتعتقد وحْدانِيَّته في الألوهِيَّة، وأن تتَّجِهَ إليه وحده في العبوديَّة، فَكَلِمَة (إله) تعني شيْئين: تعني المُسَيِّر الذي بيَدِه الأمْر، والمعبود معاً، فالذي بيَدِه الأمْر حقيقة، والمعبود، طلب منكَ أن تعرف هذه الحقيقة، وأن تتَّجِه إليه، والدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ)

[سورة فصلت: ٦]

فإذا اتَّجَهْت لغيره فقد أشْرَكْتَ، والشِّرْك من أكبر أنواع الظُّلم للنَّفْس، ذكَرْتُ لكم من قبل مثل؛ أنَّه لو أراد شخصٌ أن يركب قِطاراً إلى حلب، وله في هذه المدينة مَبْلغٌ كبير جداً، ذهَبَ لِيَأخذه بالكمال والتَّمام لِمُجَرَّد الوُصول إلى هذه المدينة، لكنه قد يركب في قِطار حلب ويقع في أخْطاء كثيرة، كلَّ هذه الأخطاء تُغْفَر، قد يجْلس في مَرْكبة من الدرجة الثالثة مع أنّ بطاقته من الدرجة الأولى، وقد يتلوى جوعاً، ولا يعْلم أنَّ في القِطار مَرْكبة تُعْطي الطعام، فيُمْضي الوقت كلَّه وهو جائِع، قد يخْتار مرْكبة فيها شباب يُقْلِقون راحته، وقد يختار مرْكبة مقعدها عكْس اتجاه القطار، فهذه كلَّها أخطاء، إلا أنَّهُ في النِّهاية يَصِل إلى مكانه المَقْصود، ويأخذ مبْلغه الكبير، لكن هناك خطأٌ لا يُغْتَفَر، وهو أن يركب قِطاراً متجهاً إلى مدينة درْعا، ظنًّا منه أنَّه متوَجَّه إلى حلب، فهذا خطأ لا يُغْتفر، فالخطأ الكبير أن تتَّجِه إلى لا شيء، وهذا هو الشِّرْك، أن تتَّجِه لِغَيْر الله تعالى، وأن تعقِد الأمَل على غير الله تعالى، وأن ترْجُوَ غير الله، وأن تسْترزق غير الله، وأن تطلب الرحْمة من غيره، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

[سورة النساء: ١١٦]

القرآن الكريم بكُلّ سورهِ وآياته لا يزيد على أن يكون خبراً وطلباً :

قد يقول أحدكم: لمَ لا يغْفر الله عز وجل؟ فهذا تحْصيل حاصِلٍ، فإذا توجَّه الإنسان لِغَيْر الله، ولم يؤمن بالله، ولم يعْتقد أنَّه هو الفعال، فكيف يُرْزق؟ فهذا قد ارْتكب خطأً مصيريًّا، وهذه آيةٌ قرآنيَّة تلْفتُ النَّظر، قال تعالى:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأنعام: ١١٥]

حار العلماء في تفْسير هذه الآية ! فيها كلمتان؛ هما صدقًا وعدلاً، فالخبر صادق، والأمر عادلٌ، قال بعضهم: القرآن الكريم بكُلّ سورهِ وآياته لا يزيد على أن يكون كلمتين: خبر وطلب، فهو تعالى أخبرك أنَّهُ إلهٌ واحد، وأمَرَك أن تعبدهُ، قال تعالى:

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[سورة المؤمنون: ٣٢]

خمسةُ أنبياء قالوا هذا الكلام، خبره صادق وأمْره عادِل، قال تعالى :

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[سورة الأنعام: ١١٥]

لذلك غالب سور القرآن الكريم مُتَضَمِّنَة لِنَوْعَي التَّوْحيد، فالقرآن إما خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وهو التوحيد العِلمي، وإما دعْوةٌ إلى عبادته وحْده لا شريك له، وخَلْعُ ما يُعْبد من دونه، وهو توحيدٌ عَمَلي، فأنت بين توحيدين : عِلْمي أو عَمَلي، وهذا هو الدِّين كلُّه، فلو أردْتَ أن تضْغط الدِّين لما وجَدْتَهُ يزيد عن هذين التوْحيدين، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء: ٢٥]

إن شاء الله ننتقل في درْس آخر إلى متابعة هذا الموضوع في توحيد الألوهيَّة، يتم لنا إنجاز فقرات هذا الكتاب، وأرْجو الله سبحانه وتعالى التوفيق لنا ولكم جميعاً.

والحمد لله رب العالمين